النظريّة النقديّة وأنظمة تحليل الخطاب –رؤية نقديّة–

The critical theory and discourse analysis systems A critical view

دنيا دهينة

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، الجزائر، douniadeheina02@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/09/01 تاريخ القبول: 2024/05/06 تاريخ النشر: 2024/06/29

ملخص:

عرفت النظريّة النقديّة تحوّلات كبرى مسّت المنطلقات والمسلّمات الأساسية لمناهج النقد وتياراته المختلفة، واستجابةً للتغيّرات الفكرية في ميادين الأدب والفلسفة والعلوم عموماً، عمل النقاد والدارسين على اختلاف مدارسهم وتباين آرائهم وتصوّراتهم النقدية على إلحاق مسار النقد بهذا التطوّر لكي يتجنب الوقوع في أزمة المنهج التي تجعله يقف عاجزاً أمام الأنظمة النصيّة ذات الطاقة الداخلية المشحونة بالتحوّل المستمر.

يسعى هذا البحث إلى عرض صورة التحوّل الذي مرّت به النظريّة النقديّة المعاصرة، بغية الكشف عن الدوافع الأساسية المؤدية إلى تغيير مسارها، ولإعادة النظر في وظائف تحليل الخطاب التي اقترنت من باب التلازم بأهم المتغيّرات التي سجلتها الذاكرة النقدية. لينتهي إلى خاتمة تبيّن لنا طبيعة العلاقة بين فعل التحوّل وتعاقب النظريات النقدية.

كلمات مفتاحية: المناهج، النقد، التحوّل، النظريّة النقديّة، تحليل الخطاب.

Abstract:

The following study is based on posing the idea of changing in the course of the critical theory, and processing the major transformations that affected the basic premises of the various approaches and currents of criticism.

And this research aims to show the main reasons behind the thought of changing in the critical theory, and to reconsider the discourse analysis functions that were associated with the most important variables recorded in critical memory, and analyze it. In order to reach results that illustrates the milestones in contemporary critical studies.

Keywords: approaches; criticism; critical theory; transformations; discourse analysis.

1. مقدمة:

إنّ الحديث عن الرحلة التي مرّ بها الخطاب النقدي يقتضي تتبّعه مرحلة بمرحلة، ويلزمنا، قبل طرق هذا الباب العتيق والقول فيه، أن نضع بصورة مرتبّة وتسلسل منطقي وعلمي مقبول، صورة هذا الخطاب النقدي وطُرُق اشتغال المعارف فيه، وذلك برصد هذه العلوم المعرفية في رحلتها التاريخية مع الخطاب باتصالاتها وانقطاعاتها وتراكماتها في لحظات تاريخية نقدية ومحدّدة.

إنّ التدقيق في احتمال أن يكون النقد مجرّد آليات وخطوات ينتهجها الدارس أو الناقد ليقدم قراءة لنصّ ما، هي إجحاف ومغالطة في تقدير قيمة القراءة النقدية، فالنقد في افتراضنا إبداع، والمعاني التي يصنعها فعل القراءة نص ثانٍ يماثل أو يفوق نص المؤلف قيمة وإبداعاً، والمسألة رغم سهولة طرحها تتطلّب لعرضها ومعالجتها نقدياً تحديد ثلاث عناوين أساسية؛ النظرية النقدية والتحوّل النقدي المستمر وتحليل الخطاب عبر أزمة نقدية متفاوتة، وهي الأطر التي تعيّن حدود سؤال المنهج في الخطاب النقدي.

هل معنى ذلك أن على القراءة المعرفية التي تتقصى كنه الخطاب، على أنواعها وبتعدد فروعها، أن تأخذ في حسبانها الوضع الثقافي والايديولوجي للمنهج النقدي؟ وتؤمن بوجود تحوّلات تاريخية وفكرية تقتضي بالضرورة تخلي النظريات النقدية على بعض من خلفياتها الايديولوجية غير المواكبة للخطاب عبر مراحله الابداعية في حقل الإنتاج المعرفي والثقافي؟ وهل يحمل التحوّل النقدي مبرراً منهجياً أم يكون في حقيقة أمره أزمة نقدية تتطلّب المعالجة والتقويم ليتفادى النقد مثل هذه الإشكالية؟

واقتضت طبيعة الدراسة أن نقدّم قراءة نقدية واصفة لكيفيات التحوّل في مسار النظرية النقدية وتتبّعها، بالاعتماد على آليات الوصف فالإخبار والتحليل، وتسعى بذلك الدراسة إلى توخي الأهداف التالية:

- تحديد مظهر التحوّلات الفكرية والأدبية والبحث عن أوجه التغيّر والتحوّل ضمن رحلة المنهج النقدي.
- البحث في أصل أزمة المنهج النقدي والدوافع الرئيسة المؤدية إلى الفجوة الحاصلة بين نتاج العرب مقارنة بما يمليه علينا الغرب طوعا وكراهية.
- تحديد المفاهيم النظرية والإجرائية لإنتاج النصوص والقراءة بأصنافها والبحث عن توجّه النقاد واختيارهم انطلاقاً من نماذجهم النقدية وتوجهاتهم الثقافية والفكرية، في محاولتهم لتحقيق قراءات أصيلة سبيلها المنهج النقدي بصيغة مفردة أو مركّبة.

1. الخطاب النقدي: المفهوم والمرجعيات

إنّ الخطاب حدثٌ لغويّ يرسله متكلّم أو مرسل نحو مخاطب أو مرسل إليه قصد إفادته بمعلومات أو أخبار محددة في مقام محدد وباستعمال وسيلة تبلغيّة محددة، والانطلاق من ظروف وأحوال وأوضاع مشتركة بينهما. وهذا يعني أنّه نشاط تواصليّ يتأسس على اللغة المنطوقة أولاً، ويرتبط بالتعبير عن كل نظم الإفادة في الممارسة الاجتماعية؛ فلكل معرفة خطابها المعبر عنها،[1] وإذا كانت المعرفة قد ركّزت على السماع وثقافة الأذن، فإن عصرنا قد أضاف إلى ذلك عنصراً آخر يتكامل مع الأول ويغنيه وهو عالم الصورة وثقافة العين. وإذا كانت المعرفة اللغوية القديمة قد أفرزت أشكالها الخطابية ونصوصها فإنّ المعرفة اللغوية الحديثة قد سارت على المنوال نفسه أيضاً.[2]

وقد شدَّدت المعالجات الوظيفية للّغة على تعدّد وظائف النصوص. على سبيل المثال، تعتبر الألسنية الوظيفية أنّ النصوص تملك في الحين نفسه وظائف فكرية (Ideational)

وتبادلية (Interpersonal) ونصيّة (Textual). ويعني ذلك أنّ النصوص، في الوقت نفسه، تمثّل جوانب من العالم (العالم المحسوس والعالم الاجتماعي والعالم العقلي)، وتجسّم العلاقات الاجتماعيّة بين المشاركين في الأحداث الاجتماعيّة ومواقفهم ورغباتهم وقيمهم، كما أنها تقيم ترابطاً وتماسُكاً بين أجزاء نصيّة، وتصل بين النص والمقام الذي يشكّل سياقه. وبالأحرى القول إنّ الناس يقومون بهذه الأشياء ضمن سيرورة صناعة المعنى في الأحداث الاجتماعية، ويشمل ذلك نسج النص وصناعته.[3]

وعندما نهتم بالإنتاج الأدبي فإننا نصادف مادة ذات طواعية قصوى لحمل أكثر المضامين تنوعاً وتبايناً، وأوسع الدلالات اعتبارا وكثافةً. ذلك أنّ الحديث عن الأدب _وهو مدار علم النقد_ مدعو إلى أداء مهمة التواصل داخل دائرة الأدباء والنقاد من جهة أولى، وإلى أداء وظيفة التثقيف خارج دائرة الاختصاص الضيق من جهة ثانية، فلابد من التأكيد على اقتفاء النقد منهجيّه وقيميّه في المرحلة التاريخية الراهنة أين يكون مجال الممارسة هو المعرفة بحدّ ذاتها.[4]

بهذا الطرح نكون قد تخطينا مرحلة (لماذا لا تقول ما يفهم؟). فالخطاب لا ينبغي له أن ينزل إلى هذا المستوى من القراء في زمن أصبح منفتحا على ما فوق الحداثة Super modernity، ويتوق إلى المغامرة الفكرية المستمرة لينتج أساطيره الحديثة.[5]

وفي زمن تكامل التخصّصات، اعتبر تحليل الخطاب تخصّصا علميا ثريا خصباً، اكتسب جدارته المعرفية وسيادته العلمية لكونه يوفر للباحث مداخل منهجية مختلفة لتحليل النّصوص والخطابات بالنظر إلى المدارس اللّسانية والنقدية المختلفة وخلفياتها النظرية ومرجعياتها الفكرية والمعرفية التي تؤطّرها فتكيّف خطابها حسبها.

كما يُعدّ تحليل الخطاب مثالاً حيّا لتضافر الاختصاصات؛ ففيه تتفاعل المعرفة اللّغوية على تنوعها بالمعارف الأخرى الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية... وكذا المعرفة المنهجية الإجرائية التي تحدّد مسارات التحليل وتضبط حدوده.[6] وبقدر ما تحمل هذه الصورة من مزايا وتأملات، تبوح أيضا بحالة التيه التي يشهدها المنهج النقدي من إشكاليات مفهوم وأزمات ممارسة على النصوص المختلفة المضامين.

ولأنّ السعي دوماً إلى ربط أواصر الأصالة بالتجديد؛ فقد اتجه البحث سبيل منهج ذي ملامح لا يلحقه تشويه، ولا يحمل تناقضاً معرفياً ولا ثقافيا.[7] وتبقى هذه المسألة وإن سهُل التفكير فيها مطلباً وعراً ومنعرجاً حاسماً في تاريخ النقد إن اجتاز القارئ مسألة تنقص من زمن كان لابد أن يُستغلّ في البحث عن قراءات أصيلة للنصوص والخطابات، فيدخل متاهة المنهج التي لن يجد من دونها موئلاً.

ولأجل هذا نميّز أولاً طبيعة المنهج النقدي فيما يتعلّق بكلّ من المستوى النظري والإجرائي، وعلى مستوى المنهج في حدّ ذاته نحدد العوامل التي يمكن بوجودها أن يصل المنهج لدرجة النظرية من الأساس وبغيابها ما يكاد يبلغ تلك الصفة المقتربة من الاكتمال والشمولية. نوضح بداية علاقة التأثير والتأثر بين المنهج ومادة الدراسة أي النص وذلك باختصار في الشكل التالي:

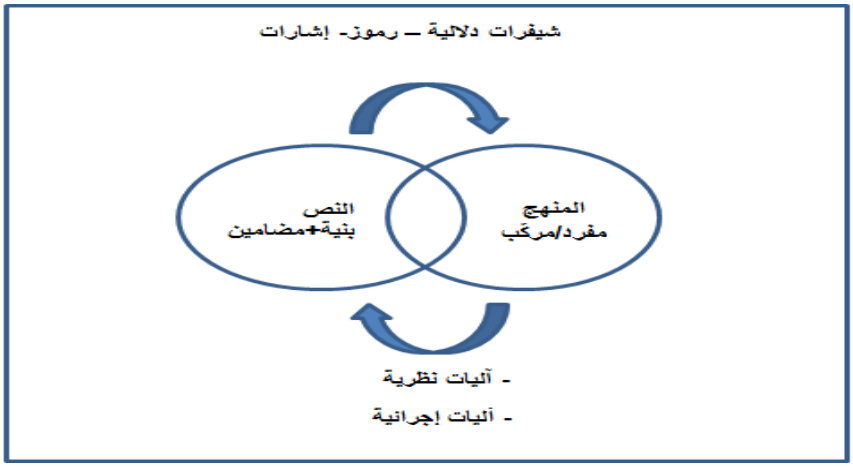

يعني هذا أن هناك محاولات عديدة وما تزال لتصنيف الخطابات والنصوص ومحاولة تبيان التداخل الموجود بينها وفي الوقت نفسه رسم الحدود الفاصلة بينها، ويقتضي ذلك البحث بالمنهج المناسب _إمّا فرادة أو بالتركيب_ في ما يميّز هذه الخطابات من صفات من حيث الشكل الذي تظهر فيه ومن حيث المحتوى المعرفي الذي تقدمه ومن حيث الاجراءات المنهجية المطبّقة في التحليل.[8]

ولعلّ طبيعة التفكير الذهني للعرب هو ما يؤخر بلوغ درجة المعرفة بالمنهج أو الخروج بتجارب أصيلة وخاصة؛ أي العقل التابع والعاجز عن الإبداع، وهو عقل لا يستطيع التعامل مع الأفكار والآراء والنظريات تعاملاً حراً مبدعاً. هو يتعامل معها، (وخاصة إذا كانت حاملة الخاتم الأوروبي المتميّز) باعتبارها صنما لا يجوز المساس به. فتصبح هذه الأفكار والمناهج، آلة من آلات القمع الذهني والاجتماعي فهي من حيث أصلها قوة مطلقة لا نجرؤ إلا على التعامل معها كما هي، لا إمكانية لتحويرها أو تهجينها، وتعديلها أو تخليصها من اطلاقيتها وادماجها في نسق خاص جديد.[9]

وقد أورد الكثير من النقاد العرب مجموعة من النصوص التي تحدد ملامح مسألة التأثر بمنجزات الغرب الفكرية والمنهجية. فهذا عبد الملك مرتاض يرجع خطورة المسألة الفكرية إلى الإعجاب بالغرب الذي كثيرا ما لا يفضي إلاّ إلى الاجترار، وإلاّ إلى الضحالة والعقم، لأن المعجب بالشيء قُصاراه أن يقلّده، أو يحاكيه دون أن يفكر في أن يضيف إليه شيئاً، فإن استطعنا أن نأتي ذلك بالكفاءة العلمية المطلوبة، وبالقلق المعرفي المتحفّز، فإننا نوشك أن نكون بصدد تأسيس نظرية نقدية عربية تمسي كالنظريات النقدية الغربية التي اكتسحت نوادي الثقافة والأدب في العالم فباتت لا شيء غيرها يتردّد على الشفاه، ولا شيء سواؤها يجري على الأقلام.[10]

الأمر الذي لا يمكن أن يتحقق ما لم نكن قادرين على تحويل هذه المناهج أو الأدوات أو النظريات عن اطلاقيتها، وردها إلى نسبيتها، أي إلى تاريخيتها، باعتبارها فكراً انتجه بشر في تاريخ محدّد، إستجابة لحاجات هذا التاريخ. وهذا موقف يحتاج لأن نكون نحن أنفسنا نسبيين وتاريخيين، أي أن نكون قادرين على إدراك موقعنا في التاريخ، في تاريخنا الخاص وفي تاريخ العالم. وهذا ليس متوفراً عند أغلبنا.[11]

أي أنّنا لسنا منتجي المناهج الغربية التي نتبناها ونؤمن بها وإنما نستوردها، أو لنقل بدقة أكبر أنها تفرض علينا، لأننا مولعون بالتجديد.[12] فما دام النقد يصطنع أدوات أجنبية عنه ابتغاء التوصل إلى معرفة حقيقية لذاته، أو معرفة حقيقة ذاته (النص الأدبي)، ثمّ ما دام معترفاً بقصوره عن بلوغ الحقيقة بأدواته القاصرة (الانطباع والمثاقفة، أو التّناص والممارسة...)،[13] فإنّه سيظلّ غريبا على عراقة انتمائه إلى نفسه عاجزا عن تحقيق موازنة التطابق بين العمل الأدبي قالباً ومضموناً وبين بيئة إنتاج معاني هذا العمل.

وليس الخطأ في اصطناع المنهج النقدي بل في الوقوف عنده والاعتقاد بأنّه يفي بكلّ ما هو مطلوب.[14] فوظيفة القارئ أن يكون عارفاً مستبصراً بنهاية القراءة قبل طرق باب النّص وعازماً على تحقيق كمّ من الاحتمالات وخلق قراءات بكيفيات فهم وتحليل أساسها الكشف عن المؤجل بعين الاختلاف، والمفروض أن يتّسم القارئ بثقافة منهجية شاملة غير قاصرة ليميّز أيّ المناهج تظفر آلياتها بخفايا النص، وأيُّها قابل للانصهار والتوجّه بالتركيب لصنع المعنى.

أمّا وظيفة النقد فهي أن يتعلّم الباحث الشكّ المنهجي لكي لا يقبل الأخبار، كالقارئ الساذج، وكأنها عين الواقع التاريخي. فهو إذن عمل تمهيدي. أمّا من يعتقد أنّه الغاية وأنّ في هزالة نتائجه دليلاً قاطعاً فإنه يسجن نفسه في مأزق ويعترف بأن عمله نافل بدون جدوى.[15]

2. النظرية النقدية وسؤال التحوّل

يستمر الخطاب النقدي في إعادة النظر في أصوله ومفاهيمه، وفي مجالات معارفه المركّبة والمفردة، ويستمر الذهن في التساؤل عن مدى صحة وسلامة الأخبار التاريخية التي تؤسس للمعرفة البشرية، ولا شك أن تتكئ المعرفة التاريخية على نظريات ومناهج مسبقة لتؤسس لمعارف لاحقة توليدا للمعرفة واستثمارا للحوادث التاريخية، بالوصف حينا والتحليل والتركيب حينا آخر.

من هنا يكون تقويم المعرفة التاريخية قائما على الوهم والتخمين اللّذين يجريان على القرائن في سبيل إدراك حقيقة ممكنة أو محتملة يصدقها السلوك والفعل التاريخي المروي. إنّها إذن الأركيولوجيا، التي تبحث في مصادر المعرفة المتعددة حيث يضمحل الشك، ويُعمَل على الحفريات الثقافية والاجتماعية أنساقاً ونظماً كما يراها ميشال فوكو.[16] إنّ الحاصل هو شكل من أشكال التحوّل في عملية إعادة النظر والاهتمام، وقد صوّب نحو ظواهر الانفصال الفكري والمعرفي للخطاب.

شهدت الحياة الثقافية والأدبية في العالم وفي الوطن العربي خلال ثلاثة عقود مجموعة من التغيرات والكشوفات المعرفية التي منحت الرؤيا النقدية أفقاً نظرياً جديداً بحيث أصبح من غير الممكن تجاهل هذه المتغيرات النقدية والرؤيوية والركون إلى المسلمات والقناعات النقدية التقليدية، الأكاديمية منها وغير الأكاديمية.[17]

في زمن الثورات المعرفية والانفتاح المستمر على التطوّر والجديد في شتى المجالات، أصبح من الضروري جدا على الناقد/ الدارس أن يعيد النظر في منطلقاته النقدية التي اعتاد عليها وأن يسعى لإعادة تشكيل تصوّراته النقدية وترتيب مرجعياته المستحدثة وفق ما يفرضه الواقع من حوله. وفي مثل هذا الواقع النقدي راحت الرؤى والمناهج النقدية

الجديدة، تظهر تدريجياً منذ أواخر السبعينيات ومطلع الثمانينات لتشكل رؤيا نقدية حداثية متميزة في واقعنا النقدي.

يتعيّن أن نوضح نقطة مهمة، وهي أنّ المناهج الجديدة والنظريات الحديثة والمعاصرة لا تلغي القديمة منها، بل قد تنفيها وتعارضها، أو قد تقوّضها لتقوم على أنقاض بعضٍ من مبادئها لتؤسس ذاتها ومنطلقاتها المختلفة.

يقصد بالنظرية النقدية كلّ مذهب أدبي أو تيّار، أو مدرسة، أو منهج نقدي، عالج قضية دراسة النصوص الأدبية من خلال رؤى محدّدة ومختلفة، فعندما كانت الرؤية تنطلق من منتج النصّ الأدبي نفسه بوصفه صانعه ومنتج معانيه، وقع التركيز على المرجعيات الاجتماعية والتاريخية والنفسية، فسميت تلك النظريات بالمناهج الخارجية أو السياقية.[18]

وعندما اتجه التركيز صوب النص بوصفه بنية منغلقة مكتفية بأنظمتها الداخلية اندرجت تلك النظريات تحت لواء المناهج النسقية؛ فبرزت الشكلانية والنقد الجديد، والأسلوبيات، والبنيوية باتجاهاتها، وعندما وقع التركيز على كيفية تلقي النص أو قراءته، للكشف عن المعنى المؤجل خلف الظاهر من النصّ، حظي القارئ بمكانة تفوق الاهتمام بالمؤلف ونصّه، ليقتحم بالسلطة المنوطة به مجاهيل النص المكلّل بالغموض، فيفكّكه ويأوّله بما تقتضيه موجّهات القراءة والتحليل. وبهذا الشكل، تأتي كلّ نظرية لتتمّ ما عجزت عنه سابقتها مواكبة لتسلّح النصوص بدرجات أعلى من غياب المعاني وتأجيل دلالاتها وابتعاد مراميها عن أعين القارئ البسيط.

3. حركية النص وتحولات القراءة النقدية

مرّت التجارب النقدية للمفكرين والنقاد العرب بمراحل منتظمة ومتعاقبة، فمن الجمع بين الأصالة والمعاصرة إلى الجمع بين الممارسة النظرية والتطبيقية بين ثابت نصيّ ومتغيّر منهجي، إلى الانتقاء والترجيح من زخم نتاج المدّ الغربي ومن ثمّ الخلاص بتوجهات نقدية

أصيلة وعربية فريدة تخفف من وطأة الفارق الزمني والمنهجي والنقدي بين القطبين والنتاجين العربي والغربي بخصوص بناء مشاريع نقدية تحاكي تيارات الحداثة وما بعدها.

واليوم، لم يعد النقد شيئاً مسلماً به، ولا قولٌ هو في موضع الثقة واليقين، ولا رأي مهما كان مصدره ثابتاً من الثوابت،[19] لا يكاد الدارس يظفر بوجهة نظر واحدة تجمع بين تلك الآراء لأنها لا تستقي من معين معرفي واحد، ولا تنطلق من أطر مرجعية مشتركة. لهذا يمكن وصفها بالنظرات بدل النظريات التي تؤطرها خلفيات فلسفية وفكرية واجتماعية وأدبية. فهي تمنح أصولها من مشروع ثقافي متماسك، وتربط بينها اهتمامات واحدة.[20]

وكلّ نظرية تنسف ما قبلها، وتهدّم ما تقدّمها، وتسفّه ما مرّ من الآراء والأقوال والنظريات، في سلسلة من الهدم والنقض لا تعرف التوقّف.[21] وفي هذا المسار المحفوف بأعذار الهدم يقف القارئ متسائلاً أمام النص المحمّل بالمعارف المختلفة والايديولوجيات المتضاربة .

بأيّ منهج يكشف هذا القارئ عن مستور المعنى المرجأ خلف آثار الكلمات؟ وبأيٍّ من الأدوات الإجرائية يحاكي سياق النص؛ الثقافي والفكري لينتج معاني لانهائية وجملة من القراءات. بل بأي من اللاّمناهج؟ يمكن التحدّث بالدليل الصارم والبرهنة عن شيء اسمه في حقول النقد: المنهج؟[22] وكيف ذلك ولكلّ منهج منطلقات ومرجعيات فكرية ثابتة في حين يقابله بنيات نصية ثابتة أيضاً. وما يحقق قانون التجاذب بين متماثلين يتمثّل في امتلاك المنهج النقدي إضافة لمرجعياته الثابتة، طبيعة أخرى متحوّلة تقتضيها حوافز ومداخل نصيّة معينة.

1.3. النصّ أم النصّ والسياق؟

تطوّرت العلوم وتعاقبت الفلسفات، وتطوّر الأدب والنظريات النقدية كذلك، وكان لابد على النقد أن يستفيد من هذه التحوّلات الفكرية والمعرفية وينفتح عليها ويطوّر من آلياته ومجالات اشتغاله بتلاقحه مع مختلف العلوم والمعارف. فأخذ يستمد من الدراسات التاريخية والأركيولوجيّة آليات قراءة وطرق تحليل، فطور وعمّق ملحوظاته انطلاقاً من اعتماده على آليات هاته العلوم في جانب الممارسة والتحليل التاريخي للنصوص.

وكانت الدراسات الاجتماعية والنفسية تحرز تقدما هائلاً، وتنفذ إلى عوالم من النفس الإنسانية، لم تكن معروفة من قبل ، كالشعور واللاشعور ومكبوتات الحسّ، واللاشعور الفردي واللاشعور الجماعي، وأثر الأساطير، وعوامل الوراثة وتطوّر المجتمعات وحركتها، وحركات الصراع المختلفة فيها، وغير ذلك ممّا يتعلق بحقول العلوم الاجتماعية والنفسانية. ثمّ تتالت المناهج النقدية والمذاهب والاستراتيجيات جميعا على هذا النسق، فكانت تعبيراً عن فلسفات وعقائد وإيديولوجيات يتبناها النقاد.[23]

يرى كل من سينثيا هاردي Cynthia Hardy ونيلسون فيليبس Nelson Philips أنّ تحليل الخطاب يفترض أنّه من المستحيل أن نجرد الخطاب من سياقه الأوسع، ويستعمل تقنيات مختلفة لتحليل النصوص بحثاً عن مفاتيح للخطابات التي تضمنتها، ويعدّ فاركلوف N. Fairclough الخطاب جزءاً مشكلا للسياقات المحلية والعالمية والاجتماعية والثقافية.[24]

ولعلّ إحدى طرق وضع الإطار العام لهذه المسألة هي ربطها بخطاطة مألوفة في أدبيات تحليل الخطاب النقدي، وتتمثل في خطاطة الصناديق الثلاثة التي وضعها فاركلوف؛ حيث يربط بين أبعاد الخطاب الثلاثة ذات العلاقة المترابطة، وعمليات ثلاث ذات علاقة مترابطة من التحليل. والمفيد في هذه الخطاطة أنّها تسلّط الضوء على الطبيعة الاستطرادية (أو المنطقية البينية) والاجتماعية المضمَّنة، بوصفها جزءاً لا يتجزأ من أي نص، كما تسمح أيضا باستخدام بؤر مختلفة من أجل التحليل. (تأمّل الخطاطة الموالية)

الشكل 1: أبعاد الخطاب وتحليل الخطاب عند فاركلوف

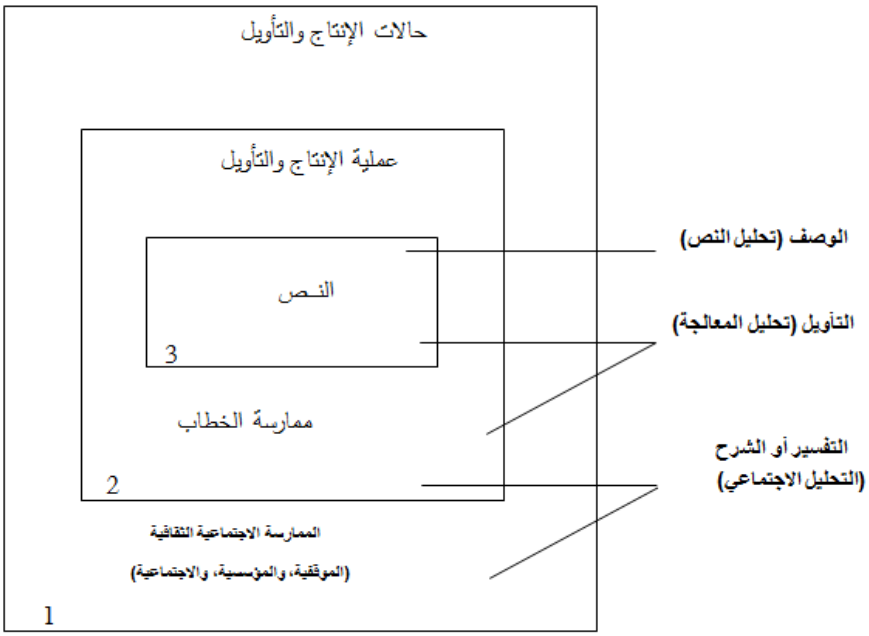

المصدر: عبد الرحمان محمد طعمة، ترجمة الفصل الرابع من كتاب "تحليل الخطاب النقدي لـ "تيري لوك" قضية ما وراء اللغة (الميتالغوية) في تحليل الخطاب النقدي، 2018، ص19

يُقصد ممّا تقدّم تحديد الكيفية التي يوظّف بها النص نفسه بين القراء؛ فعلى كل ناقد أو قارئ أن يعيد بناء النص وتركيبه من جديد وفق تصوّره الخاص بآليات تفسيرية وتأويلية تختلف عن غيره من القراء واحتكاماً بالظروف الخارجية والسياقات المنطقية التي أدت إلى إنتاجه. إلاّ أنّ الدراسات النقدية لم تثبت على هذا التوجّه السياقي في دراسة النصوص، والحقيقة أنّ قصور منهج ما هو ما يمهد الطريق لبداية مسيرة منهج مغاير.

ولعلّ ما يفسر حقيقة الرغبة في تبديل آليات التفكير هو الاقتناع الكامل بالتخلي عن الايديولوجيا، وتكاد هذه الظاهرة تكون سمة من سمات الثقافة الإنسانية المعاصرة التي تمقت الثبات والجمود، وتنتصر للتحوّل والتغيير.[25]

2.3. النظرية النقدية: من الحداثة إلى ما بعد الحداثة

إنّ القراءة النسقية إطار عام يتجاوز إطار المنهج المحدود، فتنضوي تحته البنيوية كما تنضوي تحته مناهج نقدية أخرى، لذلك لا يمكن حصر القراءة النسقية في المقاربات البنيوية فقط؛ لأن النسق البنيوي مظهر من مظاهر النسق العام. فقد يكون هذا النسق مغلقا كما تطرحه البنيوية الصوريّة، وقد يكون مفتوحاً كما هو الشأن بالنسبة إلى المناهج النقدية الأخرى مثل السيميائيات والتأويليات المعاصرة. ومن هنا لا يمكن تقديم حدّ جاهز للنسق فهو يختلف باختلاف مرجعيته الفكرية.[26]

من الملاحظ في واقعنا النقدي أنّ أنجع القراءات النقدية وأكثرها شيوعاً في شقّ الممارسة النقدية وتحليل الخطابات الأدبية، تلك التي تتجه صوب الممارسات التأويلية (Hermeneutics) والقراءات الثقافية (Cultural studies) ونظريات القراءة أو التلقي (Reception theories) واستراتيجيات التفكيك (Deconstruction strategies)، وقد حظيت هذه التيارات الفكرية بقدر كبير من الاهتمام لدى النقاد المعاصرين في العالم العربي ولدى الغرب.

ولمّا كان النقد جهداً عالميّاً وخبرة تراكمية، فقد أسهم النقاد العرب المعاصرون فيه إسهام مشاركة وتفاعل ومثاقفة إن من حيث التنظير أو التطبيق أو الترجمة.[27] في المقابل ظهر سؤال التحوّل من المناهج التي تقحم المؤلف وظروف النص الخارجية إلى المناهج الداخلية التي تقصي كلّ ما هو خارج النص، وبعدها إلى انفتاح القراءات وتراكمها في ظلّ

تعدد المناهج النقدية وتمازجها وتنافرها. ولنا أن نلخص هذه التطوّرات المنهجية في التشكيل الآتي:

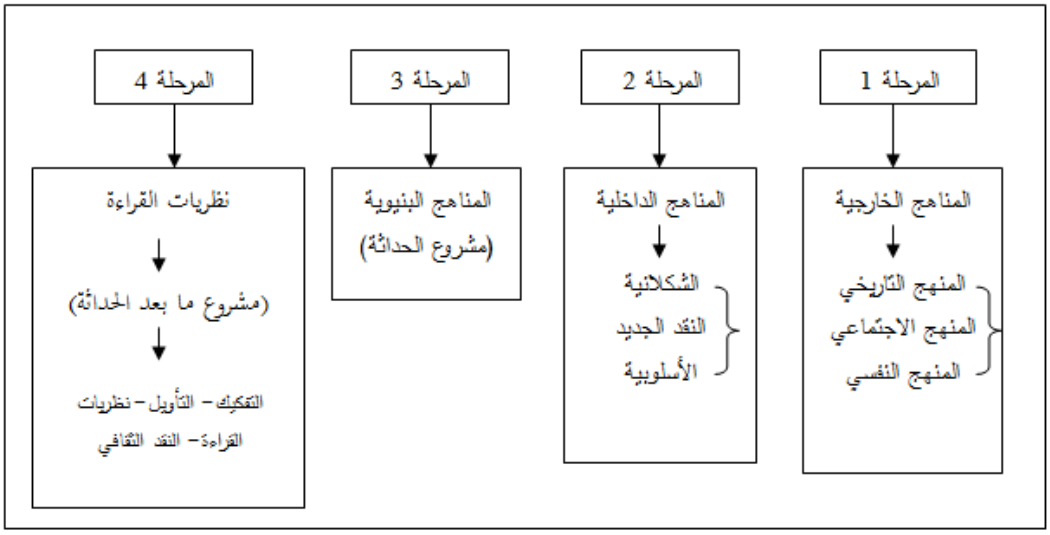

وبهذا التزامن والتعاقب بين المناهج والنظريات النقدية، يقع الاختلاف في طرق القراءة وكيفيات التحليل، وتنشأ الآليات المتتبعة لهالة التحوّل التي يفرضها التحوّل المعرفي، ذلك أنّ كل تغيّر في مجال الفكر والمعرفة قد يقود إلى تغيير أو إعادة نظر في أنظمة المناهج النقدية وطرق تحليل الخطاب.

4. خاتمة:

بناء على ما تمّ تقديمه، نقول بأنّ الالتفات إلى منعطف نقدي لاحق لما أنجز في مسار الخطاب النقدي، نحو قراءة تعيد ترتيب الكلّ في ممارسة نقدية شاملة ومستوفية للنقائص المسجلّة على استراتيجيات التحليل التي لم ترق لمرتبة المنهج، هي تمثّل لنموذج تتجاوز فيه القراءة جميع المعطيات جنباً إلى جنب، مستفيدة من بعضها البعض، تتداخل فيها المناهج المفردة لتختزل في نهاية الأمر نموذجا نقدياً مركّباً يتجاوز عجز هذه المناهج للخروج بقراءة أصيلة ومتكاملة الجوانب.

غير أن مثل هذه القراءة متعذرة في الزمن النقدي الراهن، مادامت البحوث في مبتدأ طرقها تتلمس السبيل إلى التأكد من فرضياتها وتمحيص ما وصلت إليه من نتائج، ومادامت أغلب التيارات النقدية المعاصرة غير واثقة من رصانة آلياتها بعد، يبقى عدم الثبات والتحوّل المستمر سؤالاً يلازم ذهن القارئ في اختياره الاستراتيجية الأنسب ليختبر صدقها لخوض غمار النصوص. ونخلص في ختام هذه الدراسة إلى جملة من النتائج البحثية نحاول تلخيصها في الآتي:

في مسار نظريات النقد وأنظمة تحليل الخطاب، يتجلى سؤال المنهج واضحاً مع تقدم البحث والاستقراء في مختلف النظريات. ذلك أنّ الخطاب يظهر نفسه ككيان معقد ومتحوّل باستمرار، حيث يحمل في طياته مضامين معرفية، إذ يتأثر بالعديد من العوامل السياقية (الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ... إلخ)، وبالطبع، فإنّ تأثير السياق الخارجي يتضمن الجوانب الإيديولوجية والنفسية والتاريخية أيضًا.

إنّ في فصل النص عن مؤلّفه، إلغاء لسياقه الخارجي والعوامل الخارج نصيّة التي أدّت بإنتاجه، الأمر الذي يجعل النّص محصورًا ضمن حدود عالمه الداخلي. ومع ذلك، ينبغي أن نلاحظ أن هذا الانغلاق يمكن أن يحدّ من قوة وإمكانيات النص في التعبير والتأثير.

إنّ ولادة النظرية النقدية مقترنة بوجه آخر ينمّ عن فنائها في لحظة نقدية ما، أين تبلغ اكتمالها وتعلن قصورها عن إخضاع النصوص الحافلة بالفجوات والأسئلة التي تستدعي قراءة نقدية تفوق التفرّد المنهجي إلى التركيب، وتتجاوز التفكيك إلى معرفة الهدف من إعادة التركيب، وتخترق حدود التأويل بمجمله ومفصّله نحو ما يفوق القراءة المضاعفة، ويبقى هذا احتمال نقدي يقف حائلاً دون وقوع النقد في أزمات المنهج ومشكلات التحوّل المستمر.

5. الهوامش:

[1] بشير إبرير: دراسات في تحليل الخطاب غير الأدبي، إربد، عالم الكتب الحديث، 2010، ص2

[2] المرجع نفسه، ص 11

[3] ينظر: نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، تر: طلال وهبة، بيروت، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، 2009، ص 66

[4] عبد السلام المسدي، الأدب وخطاب النقد، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، 2004، ص 66

[5] أحمد يوسف، القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة، الجزائر، الدار العربية للعلوم، ناشرون، 2007، ص 41

[6] بشير إبرير، دراسات في تحليل الخطاب غير الأدبي، ص 1

[7] أحمد مداس، قراءات في النص ومناهج التأويل، عمان، مركز الكتاب الأكاديمي، 2018، ص5

[8] بشير إبرير، دراسات في تحليل الخطاب غير الأدبي، ص12

[9] سيد بحراوي، البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث، القاهرة، دار شرقيات، 1993، ص115

[10] عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهمّ المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، الجزائر، دار هومة، 2002، ص21

[11] سيد البحراوي، البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث، ص 115

[12] المرجع نفسه، ص 114

[13] ينظر: عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد،(متابعة لأهمّ المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، ص76

[14] عبد الله العروي، الايديولوجيا العربية المعاصرة، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط4، 2011، 130

[15] المرجع نفسه

[16] أحمد مداس، قضايا في تحليل الخطاب، عمان، مركز الكتاب الأكاديمي، 2019، ص 59

[17] فاضل ثامر، اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1994، ص 234

[18] ينظر: بسام قطوس، موت النظرية النقدية رحلة النظرية النقدية من الولادة إلى الموت، الأردن، دار فضاءات، 2021، ص 41

[19] وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، دمشق، دار الفكر، ط2، 2009، ص 81

[20] ينظر: أحمد يوسف، القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة، ص 29

[21] وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، ص 81

[22] عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد،(متابعة لأهمّ المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، ص 81

[23] وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، ص 21

[24] محمد يونس، تحليل الخطاب وتجاوز المعنى، الأردن، دار كنوز المعرفة، 2016، ص 24

[25] أحمد يوسف، القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة، ص 43

[26] المرجع نفسه، ص 116

[27] ينظر: بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة مناهج وتيارات، عمان، دار فضاءات، 2016، ص 145

6. قائمة المراجع:

1. أحمد مداس، قراءات في النص ومناهج التأويل، عمان، مركز الكتاب الأكاديمي، 2018
2. أحمد مداس، قضايا في تحليل الخطاب، عمان، مركز الكتاب الأكاديمي، 2019
3. أحمد يوسف، القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة، الجزائر، الدار العربية للعلوم، ناشرون، 2007
4. بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة مناهج وتيارات، عمان، دار فضاءات، 2016
5. بسام قطوس، موت النظرية النقدية رحلة النظرية النقدية من الولادة إلى الموت، الأردن، دار فضاءات، 2021
6. بشير إبرير: دراسات في تحليل الخطاب غير الأدبي، إربد، عالم الكتب الحديث، 2010
7. سيد بحراوي، البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث، القاهرة، دار شرقيات، 1993
8. عبد السلام المسدي، الأدب وخطاب النقد، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، 2004
9. عبد الله العروي، الايديولوجيا العربية المعاصرة، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط4، 2011
10. عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهمّ المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، الجزائر، دار هومة، 2002
11. فاضل ثامر، اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1994
12. محمد يونس، تحليل الخطاب وتجاوز المعنى، الأردن، دار كنوز المعرفة، 2016

13.نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، تر: طلال وهبة، بيروت، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، 2009
14. وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، دمشق، دار الفكر، ط2، 2009